التراث اللساني العربي في أصول مصطلحات العلوم الإنسانية المعاصرة

الدكتور/ ابن حويلي الأخضر ميدني
أستاذ علوم اللسان العربي
جامعة الجزائر

ملخص:

يعرض هذا المقال رحلة تأصلية معرفية بمصطلحات و مفاهيم السيمياء و اللغة و اللسان في الموروث اللساني العربي، كما يعرض أيضا مراجعة للاستعمالات اللسانية التي تنقصها الدقة و المعرفة المعمقة، مما يعرض الفعل الترجمي للمساءلة.

إنما يكفي الدارسين العودة إلى التراث من أجل تحقيق نهضة مصطلحية تتعين معها المعارف و تتطابق من خلالها المصطلحات و المفاهيم .

Résumé

Cet article présente un voyage épistémique tout en déterminant la terminologie et les concepts de sémiotique langue et langage dans le patrimoine arabe. On y pressente aussi une révision aux emplois linguistiques qui manquent de précision et met en cause l'acte traductionnel.

Il suffit de se retourner vers notre patrimoine pour réaliser cette progression terminologique en vue de correspondre les termes aux concepts.

- **مقدمة :**

قضية مناقشة إشكالية تأصيل المصطلح العربي، ومدى تغطيته للمفاهيم الحديثة أمست أمرا حتميا يقتضي من علماء اللسان العربي إنعان النظر في مدى مطابقته لمقتضى الحاجة والتحوّلات المرحليّة الراهنة في مجال تطوّر الثقافات والعلوم الإنسانية.

ونزعم أن النقاش في موضوع المصطلح العربي المعاصر قد انتهى مثلما بدأ عقيما، ولم يسفر على نتيجة ظاهرة تشفي غليل المتتبّع لأمور إشكالية طرح المفاهيم المستحدثة وإيجاد المصطلح المناسب لها، مما ترك إرباكا مزمنا في عمل الباحث العربي وشتت فكره، وقلّص (مردوده) في مجال الإنتاج العلمي، ومن أحبّ الانفلات من ربقة الركود لجأ إلى الاستنجاد بالمصطلح الغربي لفظا ومعنى، وعند أضعف الإيمان، يعمل هذا الباحث على ترجمته مشوّها، أو يلجأ إلى النسج على منوال صيغته بطريقة غريبة.. مع العلم أن كثيرا مما هو مستعار لدينا من قاموس المصطلحات الأعجمي يبدو ذا أصول ثابتة في اللسان العربي، وقد يكون هو إياه لفظا و دلالة، دون تمييز.

وحتى يتّضح الأمر نقترح على القارئ الكريم إنعان النظر في تأصيل بعض مصطلحات المفاهيم لعلمين من أهم العلوم الإنسانية الحديثة، واستكناه أثرهما في حلقة نموّ الفكر الحضاري الإنساني واتساعه في العصر الحديث. على أمل أن ينتبه المختصون في الدرس الاصطلاحي والاصطلاحية إلى مكامن الثروة في تراثنا من جهة، ومن جهة أخرى حتى يتحقّق رجاؤنا في انتباه الفكر إلى قدراتنا الإبداعية فيحييها بحثا وتنقيبا، كما بحث الغير في تراثه فأحياه، وعند ذلك يمكن أن نجد مخْرَجا لما يعانيه درسُنا اللغوي – على وجه

الخصوص – من تشرذم مظاهر المصطلح وحيرته المردّدة بين الشرق والغرب.

وليس الغرض عندي من هذا الحديث أن أحيط بكل شيء علما وتوسعة، كما أنه ليس بوسعي أبدا أن أعدّد كل ما رأيتُ من إسهامات اللسان العربي في هذا الميدان، أي في ما يتعلّق بأصول المصطلحات في العلم الحديث، وإنما أقصى بغيتي ومُنى عيْنيي أن أبديَ مساهمة – ولو بجهد المقلّ– في (نفْض الغبار) ورفع الستار، وفتح الباب للحديث في مناقشة دور ثقافتنا العربية ولساننا المبين في مجال إنتاج الثروة المصطلحاتية، العلمية، والأدبية، والفكرية على وجه التحديد.

[I]

" السيمياء La Sémiotique "

I / 1 . نظرة دلالية :

يتعلّق مفهوم المصطلح بـ " فحوى العلامات La Signification des Signes" الذي شغل حيّزا كبيرا من الفكر الفلسفي الغربي المعاصر، ففي أمريكا بالذات، ومع بداية القرن العشرين نما هذا المنحى وتطوّر ليصبح علما مستقلا تحت اسم " علم أنظمة العلامات" أو (La Sémiotique) ، أو هو العلم الذي يعالج أنظمة "الدّوال" في إطار العلوم الإنسانية، تلك التي تهتمّ بالقضايا الاجتماعية_التاريخية، مثل: الأساطير، الأديان، والآداب. وتجعل منها مادّة للدراسة باعتبارها" أنظمة علاماتية". أما صاحب المصطلح، كما هو شائع اليوم في الأوساط العلمية (La Sémiotique) فهو الفيلسوف المنطقي الأمريكي، مؤسّس قواعد المنطق المعاصر، والمؤصّل البارز للسيميائية في زمانه، العالم

الشهير باسم بيرس تشارلز صاندرز (Peirce Charles Sanders, 1839 - 1914) .

غير أن الفضل الأول في الانتشار المعاصر لهذه الدراسة في أوروبا وغيرها يعود إلى العالم اللغوي السويسري، الفرنسي اللسان؛ فيرديناند دي سوسور (Ferdinand de Saussure, 1857-1913) ([1]) الذي أطلق عليها اسم السيميولوجيا (La sémiologie) ؛ في كتابه " دروس في اللسانيات العامّة " ونبّه إلى أنها " العلم الذي يدرس حياة العلامات ضمن الحياة الاجتماعيّة ".

وكان لمن جاء بعد دي سوسور فضلُ التطوير والتطبيق بإنجازاتهم الهامة في هذا المجال، تلك الإنجازات القيّمة التي أسهمت بشكل كبير في التطوّر المبكّر للسيمياء. فإلى جانب الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرز المذكور أعلاه، نجد ثلّة من العلماء البارزين من أمثال : تشالز وليام موريس Charles William Morris (1901 –1979)، ورولان بارت Roland Barthes (1915 –1980) ، والجيرداس جريماس Algirdas Greimas (1917-1992) ، ويورى لوتمان Yuri Lotman (1993– 1922)، وكريستيان متز Christian (1993 – 1931 Metz) ، وجوليا كريستيفا Julia Kristeva، الفيلسوفة البلغارية_ الفرنسية، المولودة سنة (1941)، تلك المرأة الموسوعية، ذات التأثير البالغ بما نشرت من كتب ومقالات تعالج مسألة: السيميائية، والتناصّ، ونظرية الأدب، والنقد، والتحليل النفسي والسياسي والثقافي، وتاريخ الفنّ ...إلخ.

[1] . فيرديناند دي سوسور (Firdinand de saussure) لسانيّ من أصل سويسري ، ولد في جنيف 1857م درس في جنيف ثم في ليبزيغ (Leipzig) ، حاضر في اللسانيات العامّة ، واشتهر بهذه الدروس التي جمعها طلابه ونشروها سنة 1916 (3 سنوات بعد وفاته) في كتاب عنوانه " دروس في اللسانيات العامة Cours de Linguistique général ".فاعتبره بعضُهم أبَ اللسانيات المعاصرة . وتوفي دي سوسور 1913 م.

I / 2 . الضبطيّة و شرْعيّة الانتماء :

عرف عند علماء الغرب في أول الأمر مصطلحان لمفهوم واحد هما : (السيميولوجيا والسيميوتيك)، و بقي أمرُ الفصل بينهما غامضا مما أوقع بعض المؤلفين في إرباك و تداخل، فمثلا هذا جان دو بوا (Jean Dubois) ورفاقُه في " معجم اللسانيات Dictionnaire de Linguistique " يزعمون أن السيميولوجيا ولدت من مشروع ديسوسور، وأنها" **دراسة حياة العلامات ضمن الحياة الاجتماعية**". ([2]) ويخصّ المعجم المذكور المصطلحين بمقالين منفصلين ومتجاورين، مع التركيز على أن مشروع السيميولوجية هو أصل السيميائية، وعند التحديد لم نجد لهما تفريقا جوهريا، فهما جميعا يهدفان إلى دراسة" **معاني العلامات ضمن الحياة الاجتماعية**" غير أن السيميائية تنحو. في رأيهم . مفترقا لتصبح نظرية عامّة لأنماط التعبير.

بينما نجد تودوروف(Todorov) ورفيقَه في معجمهما يقولان بأن: « **السيميوتيك (أو) السيميولوجيا هي علم العلامات**» ... ([3]) دون إعطاء تفسير لطبيعة هذه العلامات، ولا لكيفية الفصل بينها، إلا أنهما باستعمال أداة (أو) بين المصطلحين يكونان قد جعلهما متطابقين من حيث الدلالة، باعتبار أن الرجلين عالمان في ميدانهما، ولا يمكن أن يستهينا بالفروقات الدقيقة بين المصطلحات، ما لم يكونا قد اعتبرا المصطلحين متطابقين تمام التطابق من حيث الدلالة.

I / 3 . مُصطلح السيميوتيك ؛ أعربيٌّ هو أم أعجميٌّ ؟

2 - Dictionnaire de Linguistique; J.Dubois et col. P 434

3 - Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage ; Oswald ducrot & Tzvetan Todorov. P. 113

وإذا عدنا إلى مناقشة مصطلح" السيميوتيك" من حيث الاشتقاق وجدناه أقرب إلى المفهوم العربي وأكثر التصاقا بالدلالة العربية، كما أنه أقل تعقيدا من غيره، فهو الآن في اللسان العربي . ومنذ القديم . مثيلا للمصطلح الغربي لفظا ومعنى، إلى درجة توحي بالانطباق الكلّي، فالعرب يقولون هي: السُّومَةُ، وَالسِّيمَةُ، والسِّيْمَيَاءُ، والسِّيمْيَا، والسِّيمَا... وكلها بمعنى العلامة ذات الدلالة الصامتة (أي غير منطوقة) . ومنه قول الشاعر العربي :

غُلاَمٌ رَمَاهُ اللهُ بِالْحُسْنِ يَافِعًا لَهُ **سِيمْيَاءٌ** لاَ تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرْ . ([4])

وفي القرآن المجيد: (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) ([5]). وتذكر بعض كتب التفسير، كالجلالين، والطبري، والقرطبي، وابن كثير، أن لفظ " السيما" في الآية إنما يدلّ على: العلامة، والأثر، والأمارة، والسحنة، في وجوه المؤمنين العابدين. وسكبوا فيضا من القول الحصيف يحلّل فحواها، ويؤوّل مقاصدها، واستشفوا بعدها ما أعدّ الله لحاملها من نعيم مقيم في الآخرة، وما يُرى على صاحبها في الدنيا من أثر السّمت الحسن. إن مثل هذا التحليل يبلور في هذا المقام انشغال علماء العربية والمفسّرين بقضيّة " العلامة السيميائية " منذ القديم.

ثم ظهر في الفكر العربي بعدئذ زَخَم ضخْم من الألفاظ مصطلحا لهذا العلم الجديد، من مثل:" علم العلامات، علم الإشارات، علم الدلائل،علم الدلالة، علم المعاني، علم دراسة المعنى، علم العلاقات، علم الرموز، علم الأدلة، الأعراضية العلامية، السيمياء، السيميائية والسِّيمياء، بالإضافة إلى السيمالوجيا، والسيميولوجيا والسيموطيقا والسيميوتية، والسِّيماتيك". ([6]) مما يدلّ

[4]. لسان العرب، لابن منظور. ج 12. ص 312

[5]. سورة الفتح / الآية 29

[6]. مصطلح السيميائية في البحث اللساني، مداخلة لعبد الله بوخلخال، ص 74 . (م.س)

على تخبّط المصطلح العربي في أوحال الترجمة غير الدقيقة، وما يفرزه تأثير الثقافات الغربية في عقلية الباحث والدارس في مجتمعاتنا النامية. (والمغلوب مولع بتقليد الغالب).

وكان من الممكن تفادي هذا الإرباك وتخطيه لو عاد أولئك الباحثون إلى استشارة التراث المعجميّ العربي، ففيه غنى وثراء قد يصون ماء الوجه عن استجداء مصطلحات من غيرنا. وإنك لتجد مثلا معجم الجوهريّ ما يغنيك كقوله على " السيمياء" إنها لفظ يستعمل للدلالة على العلامة. ([7]) وأتى ابن منظور في " لسان العرب" بشيء يشبه ذلك.

وتفيض المعاجم في قضية اشتقاق لفظ " السيما " فيكون منها كلمات ، مثل: سَامَ ، وسَوّمَ ، مُسَوّمَة .. ومنها: الخيل المُسَوَّمَة، أي تلك التي عليها" عَلامة " تميِّز جودتَها وأصالتَها.

وتحت هذا المصطلح، يُدخل ابن خلدون في مقدمته معارفَ أخرى، فيذكر على سبيل المثال" الطلاسم" و"علم أسرار الحروف"، وفعل المنجمين، وغلاة المتصوّفة الذين"جنحوا إلى كشف حجاب الحسّ، وظهور الخوارق على أيديهم، والتصرفات في عالم العناصر، وتدوين الكتب، والاصطلاحات، ومزاعمهم في تنزّل الوجود على الواحد وترتيبه. وزعموا أن الكمال الأسمائي مظاهرة أرواح الفلك والكواكب أو طبائع الحروف وأسرارها في الأسماء، فهي سارية الأكوان على هذا النظام من لدن الإبداع تنقل في أطواره، وتعرب عن أسراره، فحدث علم أسرار الحروف وهو من تفريع علم السيمياء ... » . ([8])

[7]. تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري. مادة (سوم).

8 – ابن خلدون، المقدّمة. تح/ علي عبد الواحد وافي. لجنة البيان العربي بيروت. ط 2/ 1968.ج 4 . ص 1345

- **رأي في طبيعة الصِّراع المصطلحاتي :**

في الفكر الغربي المعاصر، وفي مجال المصطلحات ظهر صراع حول تفضيل أحد المصطلحين على الآخر، وخاض فيه علماؤهم مرافعات كان صداها مدويّا عبر المجلات المتخصّصة وحتى الصحف اليوميّة، مما يظهر أهمية العناية بالتدقيق في المصطلح للتعبير عن المفهوم بوضوح؛ وكان "غريماس A. J. Greimas " نفسه أحد العلماء المشهورين في هذا الميدان، وقد صرّح لجريدة " Le Monde " الفرنسية سنة 1974، حين سألته عن سر التسمية المزدوجة، بأن مثل هذا هو صميم الخصومات العميقة. وأنه كان قد اتفق، سنة 1968، مع علماء سيميائيين أمثال: ياكوبسون، وسطروس، وبنفنست، وبارث، على استعمال مصطلح السيميوتيك " Sémiotique " دون غيره .

كما يرى أن مصطلح" السميولوجيا"، بحكم تغلغله في الثقافة الأوربية، لم يكن من اليسير نسيانه، ولكن لابدّ أن نبعده من الاستعمال. ([9]) ونحن نؤازر هذا الرأي الأخير ونتمسّك باستعمال" السيميوتيك" باعتبار الاشتقاق، لقرب تطابقها اللفظي والمعنوي مع مصطلح " السيميائية " ، الأصيل في العربية لفظا ومعنى.

[II]

" اللّسان" و فعْل البيَان.

II / 1 . نظرة دلالية :

[9]. محمد بلواهم، مداخلة علم العلامات والنص الأدبي، ص 38 (بتصرّف)

نجد في تحديد" اللغة " في المعاجم الحديثة أقوالا تشير إلى أنها « **نظام من العلامات المنطوقة تخصّ مجتمعا ناطقا مكوّنا من أفراد يستعملون هذه العلامات للتعبير عن أغراضهم والتواصل فيما بينهم** » . ([10]) وفي ثنايا هذا التحديد قيدٌ للمعنى بقوله: مجتمعا ناطقا مكوّنا من أفراد ..." مما يفهم منه القصد إلى" اللسان" لا إلى " اللغة " ، بحسب تقسيمات المحدثين.

أما العالم اللغوي العربي" عثمان بن جنّي" فيقرّر في تحديد "اللغة" قولَه : « **أما حدّها فإنها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم** » . ([11]) وقوله : (أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغرضهم) دلالة على شمولية التحديد لخصائص اللغة الطبيعية البشرية قاطبة.

II / 2 . بين " اللغة" و" اللسان" :

بين هذين المصطلحين في الاستعمال العربي شَدّ ومدّ، وتداخل عبر الأزمان، ولم يستقرّ الاستعمال على أحدهما دون الآخر حتى اليوم، فيما نعلم، فهما يتعاوران المواقع في دراساتنا اللغوية التقليدية دون ثبات، فالباحث العربي يستعمل مرّة " لسان"، كما نعرف من استعمال المصطلح في عنوان معجم " لسان العرب" لابن منظور، ومرّة أخرى يُستعمل مصطلح" لغة "، كما نعرف من عناوين بعض كتبهم، ككتاب" فقه اللغة " للثعالبي،... وهكذا يستمرّ تبادل المصطلحين إلى اليوم دونما تخصيص ولا ثبات.

أما البحث اللغوي الغربي المعاصر فهو أكثر دقّة في استعمال المصطلحات وذلك منذ أن طلَع عليه (دي سوسور) بمصطلح " اللغة Langage " الذي جعله أوسع من مصطلح "اللسان Langue". فالأول عنده يشير في مفهومه

[10] - Pluridictionnaire LAROUSSE , voir (langue)

[11] . ابن جني ، الخصائص ، ج 1 . ص 33

إلى" اللغة " الإنسانية الطبيعية المطلقة في مقابل " لغة " الطير مثلا، كما أسماها القرآن الكريم (منطق الطير) في قوله: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ) ([12])، أو كتلك النملة التي خافت على أخواتها، فحذّرتهم إذْ (قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ) . ([13])

وجعل دي سوسور (اللسان) فرْعا من (اللغة)، وبيّنَ، بشكل دقيق، أن استعمال المصطلح الأول إنما هو أداة للتعبير عند قوم (ما)، كاللسان العربي، واللسان الفرنسي، والإنجليزي، والصيني، والتركْمَانِي ... وهلم جرا.

ولم أفهم، أنا، أسباب طُغيان مصطلح" اللغة Langage " في البحث العربي التقليدي والمعاصر بصفة خاصة، ولا أسباب عزوف الكثير من الباحثين عن استخدام مصطلح " اللسان" رغم فصاحته واتساع انتشاره في عالم البحث اللغوي المعاصر عند غيرنا.

ومن جهة أخرى، فقد أكّد القرآن المجيد– وهو أفصح النصوص العربية المتواترة وأوثقها على الإطلاق في نظر المؤمنين– أهميةَ استعماله في تمييز " وسيلة التعبير" عند كل قوم من أقوام البشر. والقوم (Communauté) في المفهوم السوسيولوجي المعاصر جزْءٌ محدودٌ من كيان البشرية (Humanité) بوجه عام، كما جاء في الآية الكريمة (وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ **بِلِسَانِ** قَوْمِهِ **لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**). ([14]) والعرب قوم (Communauté)، كما هو معلوم، يملكون " لسانا " يتواصلون به قَطْعًا. به خاطبهم القرآن، وبه عليهم قامت الحجّة، فقال لهم إن الآيات قد نزلت عليكم (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ). ([15]) ، فلِمَ لَمْ تتدبّرُوها ؟! ... ولم يقل بلغة

12. سورة النمل ، الآية 16
13. سورة النمل ، الآية 18
14. سورة إبراهيم ، الآية 04
15. سورة الشعراء ، الآية 195

عربية.

ويلاحظ على بلاغة القرآن المجيد التزامُها سلوكَ الدقّة والتدقيق عند انتخاب المصطلحات، ومنها" اللسان"، الذي هو أنسب وسيلة للتواصل والتبليغ بين أفراد قوم معيّنين. فإذا كان العقل المتدبّر يقرّ بأن البشرية جملةُ أقوام، فإن " اللغة " هي أيضا جملة " ألسُن"، كما سبق من رأي ديسوسور، وعليه فتعدّدُ الألسُن يتبع طردا تعدّدَ الأقوام، وتبايُنُها واختلافُها في قضايا المعجم والنحو والبلاغة أمْرٌ فِطْريّ؛ بل هو آية من آيات وجود الخالق، والدليل قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ). ([16])

ونعود لمصطلح "اللغة" فنرى من العرب الأولين من كان لا يحمّل هذا المصطلح مفهوما دقيقا، بل كان بعضهم يتجاوز في حرية الاستعمال ويجريه مجرى مصطلح " اللهجة Dialecte "، كما هي اليوم، للقبيلة كما هو للفرد، وقد وجدنا مَن يقول" هذه لغتي"، ويعني اللهجة العربية التي نشأ عليها في مرباه، وخاطب بها أهله الأقربين، و منه قول زاذان لابن عمر (τ): « حَدِّثْنِي بما نَهَى عنه النبيّ (ε) مِن الأشْرِبَة **بلُغَتِك** وَفَسِّرْهُ لي **بلغتنا**، فإنّ لكم **لغةً** سوَى **لغتنا** » . ([17])

وقوله: " بِلُغَتِنَا " يعني بلهجة قبيلتنا، بالمفهوم المعاصر، مع العلم أن كلا المتخاطبين تعدّ " لغته " حجّة وأنموذجا للفصاحة.

ويتقاطع مصطلح «اللغة» المخصّص من حيث المبنى والمعنى مع مصطلح « Logos » في اللسان الإغريقي الكلاسيكي الذي يدلّ عندهم على "

16. سورة الروم ، الآية 22

17. " صحيح مسلم " ؛ كتاب الأشربة، رقم 3716. و "مسند أحمد "؛ مسند المكثرين من الصحابة، رقم الحديث 4944 .

الكلمة " و" الكَلِم " وما يُسند إليهما من أدوار. ثم أخذت (الكلمة) تتخصّص أكثر في مجال المصطلحات الفلسفية والدينية، تبعًا لتشعّب المعاني، كالإشارة إلى الحقيقة المطلقة والقول الفَصْل. وهي كلمة الله التي ابتدأ بها الخلق. والظاهر أنهم يشيرون بـ" الكلمة Logos " إلى القضاء والحكم الإلهي المطلق الذي لا مُعَقِّبَ له؛ وإلى ما ينتج عنه من أثر على الخلْق. مصداقا لقوله (Ψ): (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) . ([18])

إذن، فلا مندوحة من تكرير القول بأن مصطلح (اللسان Langue) أبلغ دلالة على وسيلة التبليغ والتواصل بين أقوام البشر، وأكثر دقّة من رديفه مصطلح " اللغة Langage". غير أن الواقع العملي الراهن يشير إلى وضع معاكس لحكمنا أعلاه، ويؤكد بأن كثيرا من إنجازات الباحثين العرب، والدوائر الرسمية والأكاديمية، لم تُعِرْ دقّةَ المصطلح، أثناء تناوله، عناية كبيرة، بل، ولم تكلّف نفسها مراجعة استعمال هذا المصطلح، أو ذاك حتى يقعُد (المصطلح المناسب في المكان المناسب)، فمثلا نشاهد دوائر ومؤسسات كثيرة متخصّصة وغير متخصّصة تنزل مصطلح " لغة " منزل " اللسان"، فيحصل، بسبب هذا المجاز بلهَ الانزياح في التطبيق، إرباك الدرس العلمي، وأضرب لذلك مثلا بقولهم هذا: مجمع اللغة العربية، وقسم اللغة العربية، وجريدة " لغة العرب"، وكلية الآداب واللغات ...

وبناء على ما تقدم تكون المصطلحات المذكورة خاطئةً في منطق الدرس الحديث، ومارقة عن ضوابط البحث العلمي المعاصر. وفي مناقشة هادئة لدقة استعمال المصطلح في الدوائر المتخصّصة نشير إلى مصطلح (كلية الآداب واللغات)، ولنقف عند هذه الجملة المركّبة تركيبا إضافيا على ما نعتقد بأنه – وبسبب الوضع الارتجالي– قد وقع الواضع في التناقض مرتين،

[18]. سورة الأنعام ، الآية 115

الأولى استعماله لفظ (اللغات) في غير محله، وقد سبقت الإشارة إلى مناقشة العلاقة بين اللغة واللسان، فيكون لفظ "الألسن" أقوى وأفصح. والثانية انحرافه عن المنطق، وهو تقديم لفظ (الآداب) على لفظ (اللغات)، والأصح عندنا أن" اللغات" هي أم الآداب، ولولا اللغة ما كان الأدب، ومن لم يعرف اللغة لا ينتج أدبا ولا يتذوقه... فلِمَ هذا العقوقُ، بتقديم الفرع على الأصل؟ والصواب في رأينا، إن لم يكن من التصويب بُدّ، أن تكون الجملة هكذا (كلية الألسن وآدابها)، والله أعلم.

ومع اختلاف المقاصد نجد في العرب القدماء والفصحاء منهم خاصة على مَن كان يدلّل باستعمال مصطلح" اللسان" على أثر لغويّ معيّن، مثل كلمة، أو مقالة، أو رسالة ، أو " كلام" ، أو" خبر" منقول بصفة عامّة... وهذا الشاعر العربي ميمون بن قيس، الملقّب (أعْشَى بَاهِلَة)، و(صنّاجة العرب)، والمكنّى أبا بصير، وأبا قُحَافة (ت –7 هـ/ 628م) ، وقد قال في مرثية أخيه (المنتشر)، بعد أن وصله النعي ذات ليلة:

" إنِّي أَتَتْنِي لِسَانٌ لاَ أُسَرُّ بِهَا ... ... ". ([19])

ويلاحظ علامة تأنيث في الفعل (أتتني) مما يدلّ على أنه يقصد (كلمة) أو (مقالة) ، أو أيَّ شيء مؤنّث آخر كالرسالة ، والبرقية، ...

والخُلاصة من كلّ ما سبق أن كلاًّ من مصطلحي" اللغة " و" اللسان" يشير إلى نظام موحّد مَبْنِيّ من علامات شفوية أو مكتوبة، يسهل استعماله عملية الاتصال والتبليغ بين البشرية بغية التعبير عن أغراضهم وبيان حاجاتهم إلى التواصل والتبليغ.

[19] . انظر ابن خطيب التبريزي، شرح المعلقات العشر المذهّبات، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، ص 293 – 300. و ابن منظور، لسان العرب. ج 13 . ص 386

وقد تبيّن الفرق واضحا بين المصطلحين (اللغة واللسان) أكثر، وظهرت شخصية كل واحد منهما جلية بعد مجيء" فيرديناند دي سوسور F. de saussure " واقتراحه التقسيم المشهور للأثر اللساني في حياة الإنسان، ورسمه العلاقة بين أجزائه، حين زعم بأن " اللغة " مَلَكَةٌ لها خاصيّةٌ جمعيّة إنسانية.

وأما "اللسان" فيراه موجودا ضمن وبواسطة "جَمَاعَة Collectivité " من الناس معيّنة، كما يراه يمثّل « الإنتاج الاجتماعيّ لملكة اللغة، وجملة من الاصطلاحات الضرورية ينتدبها كيان ما لأجل السماح باستغلال هذه الملكة عند الأفراد». ([20])

وأخيرا يأتي الكلام (Parole)، الذي هو الأداء اللساني من الوجهة الفردية الشخصية لكل واحد من متكلّمي هذه اللغة أو تلك، سواء أكان في لسان قومه عادة، أو في لسان أو أكثر غير لسانه. فهو فعل إرادي وذكيّ، حرّ وخلاّق ؛ باعتباره ميدان الحرية الفردية لكلّ متكلّم يستطيع فيه القيام بالخلق والابتكار، بينما لا يكون للفرد العادي أي دخل في خلق " لغة " ما أو تغييرها، لأنها ببساطة ليست مُلْكَه، بل هي مُلْكُ الجماعة كلها، وإنّما يقوم الفرد فقط بتأكيد ما هو كائن في اللغة بإثارته وتوظيفه، وباستعمال له، يطابق مقاض الحال، ويحكم بنواميس اللغة المعيّنة.

والشكل أدناه يلخّص العلاقة بين أطرف اللغة الثلاثة، كما يراها دي سوسور:

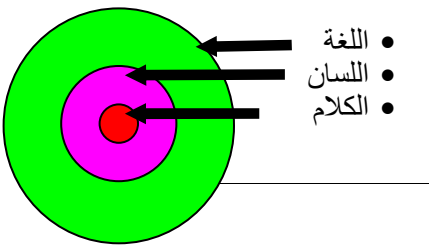

[20] - Dubois , Dictionnaire... (Op. cit). P. 340

[III]

ملْمَح السيميائية بيْن القدْمِيّة والحَدَاثيّة .

تقتصر المعاجم اللغوية – التي رأيتها – في تحديدها لمصطلح "السيميائية" على وصف ظاهري، وترديد ما جاء من صيغ اللفظ باختلاف أشكالها، وقد تشير إلى أن المصطلح قد يستعمل هنا بهذه الصيغة، ويستعمل هناك بصيغة أخرى، وتظهر رغبة كثير من المعاجم في تحديد مكان استعمال المصطلح دون تبرير لمقتضيات هذا الاستعمال. كما أشار معجم" لاروس" إلى أن" السيميولوجية والسيميوغرافيا والسيميائية " استعمالات جاءت متأخرة. وأرجَع اشتقاقه في الأخير إلى الأصل اليوناني" سيمون Semeion "، ومنه العلامة "Signe " دون تفصيل. وبخصوص المعرفة السيميائية فإن " غريماس " يراها تهتم ببناء ما يعرف بما" فوق اللغة Métalangage"، وأنظمة الرموز المفهومية، قصد الوصول إلى المعرفة العلمية للصيغ الدلالية.

وأما رولان بارث (Roland Barthes 1915-1980) فيرى " أن المعرفة السيميائية لا تستطيع أن تكون حاليا إلا نسخة من المعرفة اللسانية، التي يجب أن تطبق؛ لأنها سوف تكون علما لكل أنظمة الأدلة. والسيميائية لا يمكن أن تعالج تعليميا إلا حينما يعاد إنشاء أنظمتها تجريبيا ". ([21])

وكان اللغوي الفرنسي إميل بنفنيست (Emile Benveniste 1902-1976) يرى أنه

[21] - Barthes. Roland; L'aventures sémiologique. Imp. Herissey. Oct.1985 .France. P.19

من أخصّ وظائف" اللسان" ترجمة الأنظمة السيميائية والتعبير عنها، وأنه من المحال الاستغناء عن دور العلامة اللغوية في ترجمة العلامة السيميائية على وجه الدقّة. غير أن العلامة اللغوية غير مُوفِيَة لتمام هذا الغرض حتى تغطي مجال العلامة السيميائية، ولا تستطيع أن تحيط بها إحاطة مطلقة، ذلك لأن العلامة السيميائية في الواقع تبدو أوسع بكثير، فتشمل كل الأنظمة العلاماتية ضمن النشاطات الاجتماعية الواسعة بوسع حياة المجتمع ومداركه الإنسانية. وفي الوقت نفسه تخضع هذه العلامة (لغوية أوغير لغوية) لحدود اصطلاحية أقامها المجتمع وفق القدرات الذاتية، والأدوار التي يلعبها عامل الترجمة والتأويل.

وقد نشأ من"السيميائية اللغوية البنويّة" ما يعرف بـ" السيميائية الأدبية " التي ارتكزت على السيميائية التأويلية، وأفادت كثيرا من الدراسات التطبيقية على الفن السّردي، وميدان التأويل والترجمة الفكرية لحياة المجتمعات الحاضرة والماضية من خلال دراسة آثارها ومآثرها الاجتماعية والتاريخية، والثقافية...

ومن أبرز الأعمال الجادّة التي أضاءت جوانب الموضوع ما ظهر على يد علماء الغرب، من أمثال بارث رولان في" محاولات نقدية 1965"، وأ.ج. غريماس في" محاولات في السيميائية 1970"، وليفي سطراوس كلود (Lévi - Strauss, Claud 1908 - ...) في" انتروبولوجية بنويّة 1973".

ويلاحظ هنا أن ربط المعرفة السيميائية بالعلامة اللسانية بدا واضحا في مفهوم "بارث" باعتبار أن اللغة الطبيعيّة ذاتها تعدّ أهمّ نظام في سلسلة الأنظمة السيميائية المتعدّدة، بل هي أعقد أنظمة التعبير والتبليغ وأكثرها شيوعا ، ذلك لتعلّقها بعوامل فسيولوجية ونفسية واجتماعيّة مختلفة، وتشعبات دلالية أخرى تُفرزها متطلّبات الحياة الاجتماعية في الواقع الآني والمستقبلي، وكل ذلك وفق

منظور حركيّة اللغة وتفاعلاتها التداولية النفعية، بغرض استيفاء جوانب التعبير عن الأغراض الحياتية والظواهر الاجتماعية المعقّدة .

إذن، فاللغة باعتبارها علامات يحتلّ وجودها جزءا هاما من السيميائية، ذلك العلم العام للعلامات الذي يعالج كل الأنظمة الدالّة المنطوقة وغير المنطوقة، ولا يكاد يخلو موضوع علمي حيويّ يهتمّ بالحياة الإنسانية من أثر سيمياوي في كيانه. وبالنتيجة تكون السيميائية نظرية علميّة تُعنى بعلامات إنسانية، تتناول القسط العمليّ في الجوانب الاجتماعيّة والتاريخية (التقاليد، والأديان، والآداب، والفنون...) فتكون بذلك أرضيّة ثابتة للعلوم الإنسانية قاطبة؛ لأنها تستنطق المعطيات الشكلية، وتحوّلها . عند الاقتضاء . إلى أنظمة علاماتية شكلية، ثمّ تتولّى الألفاظ والتراكيب اللغويّة مهمّة إضاءة جوابها. لكن السيميائية بهذه الصفات تبدو أوسع من أية لغة طبيعية يستعملها البشر، (مكتوبة كانت أو منطوقة)، وتدخل ميدان" ما فوق اللغة " من الباب الواسع.

وهكذا نخلص إلى نتيجة مفادُها أن وجود الظواهر السيميائية في مختلف جوانب الحياة بتنوّعاتها (الأنماط، والأشكال، والألوان، والطعوم، والروائح...) يجعل الدراسة السيميائية التطبيقيّة نفسها تتشعب في مناحيها بحسب نوع الموضوع وطبيعة تناوله؛ ذلك؛ لأنها ليست كلها على درجة واحدة من المرونة والجاذبية في التناول العملي، مما يجعل القيم تتباين، والنظرة تختلف، فالدراسة في سيميائية الألوان مثلا أكثر جاذبية من أية دراسة سيميائية أخرى ، في نظرنا ، باعتبار ارتباطها بالكون والطبيعة والضوء والمؤثرات النفسية ارتباطا وثيقا، كما أن القرب من الانفعال وتجاذب الإحساس والمعتقدات هو مجْلَبة

للانبهار والدهشة والإثارة بفعل تطلّع النفس البشرية إلى كشف أسرار الغيب، وترقب المعجزات، والبحث عن الحقيقة ... وهذه القضايا . على ما يبدو . هي أعلق من غيرها بأغوار النفس الإنسانية، ودراستها تتطلّب آليات محكمة ودقيقة ومناهج صارمة، يحاول علم النفس التطبيقي جاهدا بلورة مقتضياتها.

وتبقى السيميائية نظرية علمية مهتمّة بتفسير مضامين ومعاني الحياة (Théorie de Significations)، وهذه المعاني مطروحة في الطريق (على رأي الجاحظ)، غير محدودة، والإحاطة بها كلها ضرْب من المستحيل.

والواقع أن جوانب كثيرة من حياة الناس ونشاطهم اليومي هي بالفعل ميدان خصب وفسيح للتطبيقات السيميائية بمنهج حديث تتطلّبه مقتضيات الحضارة الإنسانية الحالية . ([22])

مسك القول : ...

فهل يمكننا أن نتساءل عن مدى مساهمة الفكر العربي ولسانه في تشييد صرح المصطلحاتية الراهنة، الخاصة بالعلوم الإنسانية، وإذا كان الجواب إيجابيا – وكلنا تفاؤل – فلِمَ لا يكون نشاطُنا منصبّا على إحياء التراث العربي في هذا المجال ، وننكبّ على أصوله بحثا وتنقيبا، بغية الوصول إلى (اكتفاء ذاتي) من هذه المادة الحيوية ؟... وهل يصحّ منا العزم يوما ما ، على إخراج أبحاث مؤصلة في اللسان العربي، نرسلها مسوّمة إلى عالم الحياة الزاخر بشتى أنواع المساهمات الإنسانية المتميّزة ؟؟؟ ... (وما ذلك على الله بعزيز).

[22] . كتبنا بحثا في التطبيقات السيميائية بعنوان" الفيض الفني في سيميائية الألوان عند نزار قباني" ، ونشرته مجلة الآداب والعلوم الإنسانية لجامعة دمشق، المجلد 21، العددان (3+4) لعام 2005 ، ص 111 – 135

الهوامش و المراجع

- القرآن الكريم ، برواية الإمام حفص .
- الحديث الشريف. موسوعة الكتب التسعة. (قرص مضغوظ) .

1. ابن جني، الخصائص. تحقيق / محمد على النجار، ط / بدون تاريخ. ج 1.
2. ابن منظور المصري، لسان العرب، دار صادر بيروت. [ب.تا] .
3. ابن خلدون، المقدّمة. تح/ علي عبد الواحد وافي. ط 2 / لجنة البيان العربي بيروت. 1968.ج 4 . ص 1345

4. الخطيب التبريزي، شرح المعلقات العشر المذهّبات، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت.

5. رشيد بن مالك، السيميائية بين النظرية والتطبيق، رسالة دكتوراه. عام (94– 95) ، مخطوطة، مكتبة جامعة الجزائر.

6. محمد بلواهم، علم العلامات والنص الأدبي، أعمال ملتقى السيميائية والنص الأدبي بعنابة، عام 1995 .

7. مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، المجلّد 21، العددان: 3 + 4.

8. عبد الله بوخلخال، مصطلح السيميائية في البحث اللساني، مداخلة في ملتقى السيميائية والنص الأدبي بجامعة عنابة. عام 1995.

9. Barthes. Roland L' aventures sémiologique. Imp. Herissey. Oct. 1985. FRANCE.

10. Bibliorom Larousse. version 1.0, Copyright © 1996.Microsoft Corporation et Liris Interactive.

11. J.Dubois et col; Dictionnaire de Linguistique. Larousse, Paris 1980.

12. Oswald ducrot & Tzvetan Todorov Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. éd. du Seuil Paris 1972.